قراءة من الداخل

يقدّم القياديّ في تنظيم "الإخوان المسلمين" جمال حشمت في هذه السطور استعادة لمسار التنظيم عبر التاريخ، منذ النشأة مروراً بسنوات "الربيع العربيّ"، وصولاً إلى استشراف المستقبل، انطلاقاً من رؤية داخليّة، يكشف فيها عن طبيعة الصراعات داخل الجماعة.

جمال حشمت

□ عندما نتحدّث عن جماعة "الإخوان المسلمين" لا بدّ من أن نؤكّد على أنّ منهجها السلميّ في الدعوة وسط أبناء الأمّة هو المعتمد، وأنّ استخدام القوّة له قانون لدى "الإخوان" أوضحه (مؤسّس التنظيم حسن) البنّا في قوله: "تساءل كثير من الناس: هل في عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوّة في تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم؟ وهل يفكّر الإخوان المسلمون في إعداد ثورة عامّة على النظام السياسيّ أو النظام الاجتماعيّ في مصر؟"

ولا أريد أن أدع هؤلاء المتسائلين في حيرة، بل إنّني أنتهز هذه الفرصة فأكشف اللثام عن الجواب السافر لهذا في وضوح وفي جلاء، فليسمع من يشاء.

أمّا القوّة: فشعار الإسلام في كلّ نظمه وتشريعاته، فالقرآن الكريم ينادي في وضوح وجلاء ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم﴾ [الأنفال: ٦٠]، والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: "المؤمن القويّ خير من المؤمن الضعيف"، بل إنّ القوّة شعار الإسلام حتّى في الدعاء، وهو مظهر الخشوع والمسكنة، واسمع ما كان يدعو به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في خاصّة نفسه ويعلّمه أصحابه ويناجي به ربّه: "اللهمّ إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرجال". ألا ترى في هذه الأدعية أنّه قد استعاذ بالله من كلّ مظهر من مظاهر الضعف، ضعف الإرادة بالهمّ والحزن، وضعف الإنتاج بالعجز والكسل، وضعف المال بالجبن والبخل، وضعف العزّة والكرامة بالدّين والقهر. فماذا تريد من إنسان يتبع هذا الدّين إلّا أن يكون قويّاً في

مستقبل الإخوان لن يخرج عن ثلاثة سيناريوهات.

كلّ شيء وشعاره القوّة في كل شيء؟ فـ"الإخوان المسلمون" لا بدّ من أن يكونوا أقوياء، ولا بدّ من أن يعملوا في قوّة.

ولكنّ "الإخوان" أعمق فكراً وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحيّة الأعمال والفكر، فلا يغوصوا إلى أعماقها ولا يزِنوا نتائجها وما يقصد منها وما يراد بها، فهم يعلمون أنّ أوّل درجة من درجات القوّة: قوّة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك: قوّة الوحدة والارتباط، ثمّ بعدهما: قوّة الساعد والسلاح. ولا يصحّ أن توصف جماعة بالقوّة حتّى تتوفّر لها هذه المعاني جميعاً، وأنّها إذا استخدمت قوّة الساعد والسلاح وهي مفكّكة الأوصال مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فيكون مصيرها الفناء والهلاك.

هذه نظرة، ونظرة أخرى: هل أوصى الإسلام – والقوّة شعاره – باستخدام القوّة في كلّ الظروف والأحوال، أم حدّد لذلك حدوداً واشترط شروطاً ووجّه القوّة توجيها محدوداً؟

ونظرة ثالثة: هل تكون القوّة أوّل علاج أم أنّ آخر الدواء بالكيّ؟ وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوّة النافعة ونتائجها الضارّة وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف، أو من واجبه أن يستخدم القوّة وليكن بعد ذلك ما يكون؟

هذه نظرات يلقيها "الإخوان المسلمون" على أسلوب استخدام القوّة قبل أن يقدِموا عليه.

أما الثورة، أعنف مظاهر القوة، فنظر "الإخوان" إليها أدقّ وأعمق، وبخاصّة في وطن كمصر جرّب حظّه في الثورات فلم يجن منها إلّا وزر ما تعلمون.

وبعد كلّ هذه النظرات والتقديرات أقول لهؤلاء المتسائلين: إنّ "الإخوان" سيستخدمون القوّة العمليّة حيث لا يجدي غيرها، وحيث يثقون أنّهم قد استكملوا عدّة الإيمان والوحدة، وهم حين ◄◄

يستخدمون هذه القوّة سيكونون شرفاء صرحاء وسينذرون أوّلاً، وينتظرون بعد ذلك، ثمّ يُقدمون في كرامة وعزّة، ويحتملون كلّ نتائج موقفهم هذا بكلّ رضاء وارتياح.

وأمّا الثورة فلا يفكّر "الإخوان" المسلمون فيها، ولا يعتمدون عليها، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها، وإن كانوا يصارحون كلّ حكومة في مصر بأنّ الحال إذا دامت على هذا المنوال ولم يفكر أولو الأمر في إصلاح عاجل وعلاج سريع لهذه المشاكل، فسيؤدّي ذلك حتماً إلى ثورة ليست من عمل "الإخوان" ولا من دعوتهم، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال، وإهمال مرافق الإصلاح. وليست هذه المشاكل التي تتعقّد بمرور الزمن ويستفحل أمرها بمضيّ الأيام إلا نذيراً من هذه النذر، فليسرع المنقذون بالأعمال.

وحتّى لا تختلط الأمور فتصعب الأسئلة وتحتار النفوس كان الأستاذ البنّا رحمه الله واضحاً في رسائله:

"لا يحبّ الإخوان أن يخلطوا البناء بهدم.." [رسالة المؤتمر الخامس]

أوّل درجة من درجات القوّة: قوّة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك: قوّة الوحدة والارتباط، ثمّ بعدهما: قوّة الساعد والسلاح

"وليست الوسيلة القوّة، ومحال أن تثبت الدعوة بالعصا، أو تصل إليها على شبا الأسنّة والسّهام، ولكن الوسيلة تركيز الدعوة وثباتها، إيمان وعمل ومحبّة وإخاء.." [رسالة دعوتنا في طور جديد]

"أمّا الثورة – بمعنى الفوضى والدمار– فلا يفكّر فيها "الإخوان المسلمون"، ولا يعتمدون عليها، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها.." [رسالة المؤتمر الخامس]

"وسيلتنا هي الإقناع ونشر الدعوة بكل وسائل النشر حتّى يفقهها الرأي العامّ ويناصرها عن عقيدة وإيمان، ثمّ استخلاص العناصر الطيّبة لتكون هي الدعائم الثابتة لفكرة الإصلاح، ثمّ النضال الدستوريّ حتّى يرتفع صوت هذه الدعوة في الأندية الرسمية، وتناصرها وتنحاز إليها القوة التنفيذية". [رسالة المؤتمر الخامس]

"وسيلتهم في ذلك تنحصر في تغيير العرف العامّ وتربية أنصار الدعوة على هذه التعاليم". [رسالة المؤتمر الخامس]

ولعلّ ذلك من تفسيرات ما حدث من عدم القدرة على إدارة مقدّمات الثورة في ٢٥ يناير ٢٠١١م لتتحوّل إلى ثورة حقيقية! حيث تفاجأ بها الجميع!

وتلك هي مقدّمة الدخول في مستقبل "الإخوان المسلمين"، حيث كانت فترة الثورات العربيّة هي البداية الحقيقيّة لإرهاصات التغيير المرتقب في الإخوان.

هناك أسئلة يجب أن تسبق هذا السؤال: ما هو مستقبل جماعة "الإخوان المسلمين"؟ منها:

– لماذا كانت جماعة "الإخوان"؟ وما دورها منذ الإنشاء؟ وهل تغيّر الدور أو تعدّلت المهمّة؟

وللإجابة عن هذا السؤال دعونا ننظر إلى قول الإمام المؤسّس الأستاذ حسن البنّا والذي يوجّهه للإخوان ملخّصاً حقيقة الجماعة وروعة من ينتمون إليها عندما يعملون بهذه الكلمات:

– هل أنتم مستعدّون لتتعبوا من أجل أن يرتاح الناس؟ هل أنتم مستعدّون أن تجوعوا ليستمتع الناس؟ هل أنتم مستعدّون لتموتوا من أجل أن يحيا الناس؟

ويقول: إنّ خير النفوس تلك النفوس الطيّبة التي ترى سعادتها في إسعاد الناس وإرشادهم، وتستمدّ سرورها من إدخال السرور عليهم، وذود المكروه عنهم، وتعدّ التضحية في سبيل الإصلاح العام ربحاً وغنيمةً.

ويقول: إنّ الإشاعة والأكاذيب لا يقضى عليها بالردّ أو بإشاعة مثلها، ولكن يقضى عليها بعمل إيجابيّ نافع يستلفت الأنظار ويستنطق الألسنة بالقول فتحلّ الإشاعة الجديدة وهي حقّ مكان الإشاعة القديمة وهي باطل.

ويقول: نحن على استعداد تامّ لتحمّل نتائج عملنا أياً كانت. لا نلقي التبعة على غيرنا، ولا نتمسّح بسوانا. ونحن نعلم أنّ ما عند الله خير وأبقى، وأنّ الفناء في الحقّ هو عين البقاء، وأنّه لا دعوة بغير جهاد، ولا جهاد بغير اضطهاد، وعندئذ تدنو ساعة النصر ويحين وقت الفوز، ويحقّ قول الملك الحقّ المبين: (حتّى إذا استيأس الرسل وظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنُجّي من نشاء ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين).

ومن أراد أن يعرف ماذا قدّم الإخوان للمسلمين عامّة وللمصريّين خاصّة فلا بدّ أن يعرف حال الأمّة قبل ظهور دعوة الإخوان.

فلقد سقطت الخلافة الإسلاميّة في عام ١٩٢٤م، وبالتالي انفرط العقد الرمزيّ – في ذلك الوقت – الذي كان يجمع المسلمين، وكانت كل البلاد الإسلامية محتلّة –صغيرها وكبيرها– وأوجد الاستعمار حوله طائفة من الساسة المنتفعين من وجوده، وطائفة من المثقّفين تعلّمت في بلاد الغرب، فلم تعد ترى من سبيل لنهوض هذه الأمّة إلّا من خلال الغرب، وفكر الغرب، وحياة الغرب، مع تطليق بائن لكلّ ما تنتمي إليه هذه الأمّة من فكر وحضارة، والإسلام بالطبع في صدارتها.

وفي خلفيّة الصورة شعوب محتلّة متخلّفة أكل منها الجهل ما أكل، وانتشر الفقر والمرض بين أبنائها فصاروا فريسةً سهلةً للأكلة التي تداعوا إلى قصعتها.

وصار الإسلام حبيساً بين المساجد التي لا يرتادها إلّا كبار السنّ والعجزة، ولا تقرب المرأة من المسجد أبداً لا من قريب ولا من بعيد إلّا لزيارة الأضرحة والموالد.

ولم يشذّ عن هذه الصورة إلّا بعض الأوفياء لهذا الدّين وهذا الوطن (أمثال: الشيوخ جمال الدين الأفغانيّ ومحمّد عبده ومصطفى المراغيّ – والزعيم مصطفى كامل – وبعض الأدباء من أمثال: مصطفى صادق الرافعيّ وعبّاس العقّاد لاحقاً ومحمود سامي البارودي الخ...). ولكن ظلّ ◄

هؤلاء الأوفياء بعيدين عن دائرتي التأثير الرئيسيّتين في أيّ مجتمع وهما السلطة والجماهير. ولمواقفهم السياسية والفكرية تمّ إبعادهم عن دائرة السلطة، ولأفكارهم الثقافية الفوقية – غير المختلطة بعموم الناس- ابتعدوا عن الدائرة الثانية.

هكذا كانت الصورة، صورة قاتمة لا يُرى فيها بصيص ضوء لا من قريب ولا من بعيد.

ولمحاولة تغيير هذه الصورة القاتمة قام الإمام حسن البنّا بإنشاء جماعة "الإخوان المسلمين"، جماعة تعيد الناس للإسلام في معينه الصافي القرآن والسنّة، وتعيد للإسلام مجده، وللمسلمين عزهم.

متظاهرون بميدان الدور في المحلة يحرقون شعار جماعة الإخوان.

هكذا كانت الفكرة في الإسماعيليّة للشابّ ذي الاثنين والعشرين عاماً؛ فاستفاد من أخطاء من سبقوه وخاطب الدائرة الثانية – دائرة البسطاء من الجماهير – وكلّمهم عن الإسلام الذي يحبّونه، ولكنّهم لا يعرفون كنهه.. يحبّونه ولكنّهم لا يعملون لرفعته.. يحبّونه ولكنّهم لا يقدّرونه قدره.

فماذا قدّم الإخوان؟

وهنا يقدّم هذا المقال جزءاً من الدور التاريخيّ الذي قامت به جماعة "الإخوان المسلمين"، ويأمل ألّا تُسبق هذه القراءة بالتحامل والنظرة السيّئة، ويطالب من يطّلع عليه أن يكون حكماً عدلاً متجرّداً مبتغياً وجه الله عزّ وجلّ.

المستوى الاستراتيجيّ

أوّلاً، ساعدت الجماعة في استعادة وعي وهويّة الأمّة، وحماية العالم العربيّ والإسلاميّ من ثلاث موجات متتالية كادت تعصف بشعوب الأمّة فكراً وسلوكاً وعقيدة، وهي:

١- موجة الانحلال الأخلاقيّ والعقديّ منذ عشرينيات القرن الماضي وحتّى فترة الستينيّات والتي انتهت بهزيمة ١٩٦٧.

٢- موجة التشدّد والتطرّف والتكفير التي بدأت في بدايات السبعينيات كردّ فعل على الموجة الأولى، وما زالت بقاياها مستمرّة حتّى الآن.

٣- موجة العنف والانقلاب التي ظهرت كرد فعل لليأس من الإصلاح والتغيير السلميّ ورداً على

حملة المشروع الصهيوأمريكيّ في المنطقة.

ثانياً، فضلاً عن ترسيخ الفهم الوسطيّ المعتدل بعيداً عن التشدّد والتطرّف، والنهج السلميّ بعيداً عن العنف والتدرّج بعيداً عن الطفرة والانقلاب، وهي مقوّمات للتواجد والاستمرار والوصول إلى قلوب الناس وتحقيق السعادة للبشرية.

المستوى الإجرائيّ

١- استدعاء المرجعيّة الإسلاميّة ليحدث التوازن أو التكافؤ بين المشروعات ذات المرجعيّات العقدية بعد غياب قرون.

٢- تبنّي المشروع الحضاريّ الإسلاميّ كمشروع يتّفق وهويّة الأمّة وثقافتها بديلاً عن المشروع الصهيوأمريكيّ.

٣- تقديم المشروعات والبرامج الواقعية والممكنة للإصلاح والتغيير بعد فترة طويلة من اتّهامهم بالغياب البرامجيّ والمشروعيّ.

٤- تقديم نماذج من الجيل المسلم الوطنيّ المنشود الذي يتميّز بنظافة اليد ونقاء الضمير وحسن السيرة، فضلاً عن التميّز المهنيّ والأداء الخدميّ.

٥- تقديم نماذج مؤسّسية عمليّة للشعار العبقريّ "الإسلام هو الحلّ" في المجالات التعليميّة والصحيّة والاجتماعيّة والخدميّة.

٦- الارتقاء بالعمل النقابيّ بصورة غير مسبوقة على المستوى المهنيّ والخدميّ والمشاركة الفاعلة في حلّ المشكلات المحليّة ودعم القضايا المركزيّة.

٧- الممارسة السياسيّة والبرلمانيّة المميّزة والناضجة في المجالس البرلمانيّة والمحلّيّات لدرجة أحرجت وكشفت فساد العديد من الأنظمة السياسيّة العربيّة والإسلاميّة.

٨- المشاركة في الحكم في بعض البلدان وتقديم نماذج ناضجة من الوزراء والمسؤولين.

٩- إحياء روح وثقافة المقاومة السلميّة ضدّ المستبدّ الفاسد، وروح المقاومة المسلّحة ضدّ المحتلّ الغاصب، بل وفرض القاعدة الذهبيّة لقضايانا المركزيّة والمحلّيّة أنّه لا حلّ دون التيار الإسلاميّ النبت الطبيعيّ لهذه المنطقة من العالم.

(من بحث المكتب الإعلاميّ لجماعة "الإخوان المسلمين" في ظلال ذكرى تأسيس الجماعة مارس ٢٠١٧)

وفي بحث للدكتور إبراهيم غانم البيومي حول العقل السياسيّ لجماعة "الإخوان المسلمين" أنّ دورها ومهمّتها كانا:

"المهمّة التاريخيّة لـ "حركة" "الإخوان المسلمين" الّتي نشأت في مصر سنة ١٩٢٨ وامتدّت أفكارها وفروعها بعد ذلك شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً؛ تمثّلت بشكل أساسيّ في: إعادة ◄◄

تأسيس الحرّيّات الفرديّة والجماعيّة بمعايير المرجعيّة الإسلاميّة لا بمعايير الحداثة الغربيّة، من جهة، ومن جهة أخرى بذل ما في الوسع لجلب السواد الأعظم من المواطنين إلى "المجال العامّ"، وإعادة بناء هذا المجال الذي أكلته عمليّات التحديث الفاشلة. ومن ثمّ ردم الهوّة الكبيرة التي فصلت "الشعبيّة" ممثّلة في المجتمع بسواده الأعظم، عن "المشروعيّة" ممثّلة في مؤسّسات الدولة وقوانينها؛ بجماعتها الحاكمة، وحواشيها النخبويّة وقياداتها البيروقراطيّة الضيّقة)

وهنا نصل إلى السؤال الثالث: هل تغيّر الدور واختلفت المهمّة بعد ثورات الربيع العربيّ؟

وللإجابة عن السؤال:

نلاحظ ما يدور الآن من حوارات بين عدد من أبناء "الإخوان" والحركة الإسلاميّة، تركز على نقطة جوهريّة: أنّ الأمة كلّها الآن تنتقل من مرحلة لمرحلة جديدة، وأهمّ علامات هذا الانتقال هو تلك الحالة الثوريّة باتّساعها وموجاتها السابقة والمنتظرة.

قام الإمام حسن البنّا بإنشاء جماعة "الإخوان المسلمين"، جماعة تعيد الناس للإسلام في معينه الصافي القرآن والسنّة، وتعيد للإسلام مجده، وللمسلمين عزّهم

تتطلّب هذه المرحلة الجديدة من جماعة "الإخوان" ومن الحركة الإسلاميّة بوجه عامّ أن تراجع مشروعها الدعويّ العامّ الذي تبنّته في الفترة السابقة على الثورات، وتعدّله وتطوّره بما يناسب احتياجات الأمّة الجديدة.

ولأنّ الثورات هي التي دشّنت الانتقال لتلك المرحلة الجديدة، يلزم الأمر من الإخوان أن يعملوا النظر في دلالة هذه الثورات ونماذجها الفكريّة وتطوّراتها الحركيّة، حتّى يكون التطوير الذي يدخلونه على مشروعهم العامّ تطويراً صائباً مواكباً للواقع الجديد بفرصه وإشكالاته واحتمالاته ليحافظ على هوية الأمّة.

فالثورات العربية ليست هي حالة الفوضى والعنف التي حذّر منها الإمام البنّا في القرن الماضي، وإنّما هي، في سياق الواقع المعاصر، أفضل فرصة لدى الأمّة والشعوب لاستعادة حرّيّتها وتأسيس حياتها من جديد على النموذج الإسلاميّ الذي تدعو إليه الجماعة.

وعلى وجه الخصوص هناك بين هؤلاء الشباب من يرى أنّ هذا المشروع الجديد يجب أن يكون أصرح في مواجهته لمنظومات القمع والفساد والتبعيّة في بلادنا، بمستوياتها السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة كلّها، وعليه بالتالي أن يقدّم فكراً وحلولاً جديداً للإشكالات التي تواجهنا في بلادنا في كلّ من هذه المستويات؛ حلولاً عمليّة قابلة للتطبيق لا مجرّد شعارات كالتي رفعتها الجماعة في الفترات السابقة (من نوع شعار الدولة الإسلاميّة الذي كثيراً ما دعت إليه الجماعة دون التفكير المتعمّق في ملامح هذه الدولة وجوانب اختلافها وتميّزها عن

الدول القائمة الآن في بلادنا. وبالتالي عندما أتاحت الثورات العربيّة الفرصة للجماعة للتأثير في أوضاع الدول وتوجيهها في اتّجاهات جديدة تخدم مطالب الشعوب المشروعة في الحرّيّة والكرامة والعدالة، لم تجد الجماعة لديها من الفكر النظريّ ولا التطبيقيّ ما يسعفها في هذه المهمّة).

ومع وجود تنويعات كثيرة في مثل هذه الحوارات الدائرة، إلّا أنّ الأمر الذي يكاد يجمع عليه الكلّ هو أنّ جماعة "الإخوان" لا تستطيع أن تقوم بهذه المهامّ الجديدة لعدم مناسبة الهيكلة الّتي قامت على الشكل الهرميّ الّذي يوفّر الاستقرار والسيطرة ويمثّل حالة ثبات يصعب عليها الانتقال به إلى حالة تغيير تحتاج إلى تفاعل سريع قد لا يتوفّر في هذا الكيان الضخم، كذلك لا تتمكّن من أداء هذه المهامّ وحدها، وإنّما لا بدّ لها من أن تكتسب القدرة التي افتقدتها حتّى الآن، على العمل مع الآخرين ممّن يقفون معها في صفّ واحد ويتبنّون مطالب متشابهة، وإن اختلفت الانتماءات التنظيميّة والتفضيلات الجزئيّة في قضايا تحتمل الخلاف. هكذا جاءت موجة الثورات ففاجأت "الإخوان"، كما فاجأت العالم كلّه، بأنّ هناك قطاعات كاملة من شباب هذا الجيل، قطاعات واسعة عريضة، قادرة على العطاء والجهاد والتضحية بدرجات وأشكال مذهلة تحتاج من الجماعة مجهوداً لتنمية وإبراز عقول وقيادات فكريّة مع علم وعمق شرعيّ يطوّر أدواتها الاجتماعيّة، مع بذل جهد في إدارة حوارات متعمّقة حول ركائز النهضة، ودراسة أسباب تأخّر الأمّة وكيفيّة علاج ذلك، وبالتالي توافر عقل جمعيّ مهيّأ لأن يقدّم لأمّته قيادة فكريّة حركيّة مترجمة إلى برامج إصلاح وتغيير اجتماعيّ ناضجة تُعدّ من أهمّ متطلّبات الإحياء والإصلاح الإسلاميّ في أيّ زمن.

لكن يبقى السؤال في ظلّ هذا التغيير الذي يأخذ بتلابيب الأمّة: هل جماعة "الإخوان" بمهمّتها الحاليّة وهيكلها التنظيميّ قادرة على حمل هذه المهمّة الجديدة باعتبارها الفصيل الرئيس في الحركة الإسلاميّة؟

نحسب أنّ هذا الأمر يتوقّف على قدرة الجماعة على تغيير نفسها، من أوّل تغيير ملامح مهمّة في مشروعها الدعويّ العامّ، إلى أوضاعها التنظيميّة والقياديّة، إلى برامج عملها، إلى شبكات علاقاتها بما فيها القدرة على بناء التحالفات والشراكات التي لا غنى لها لإنجاز هذه التغييرات. نحسب أيضاً أنّ الأمر يتوقّف على إدراك الجماعة أنّ واحدة من دلالات الثورة هي أنّ الحركة الإسلاميّة لم تعد تقف وحدها في طليعة ميدان مواجهة المشروعات والمؤامرات المحيطة بأمّتنا، وإنّما دخلت طاقات كبيرة ومتنوّعة هذه الساحة العامّة. وبالتالي فإنّ على الجماعة أن تنظر لنفسها، وللحركة الإسلامية كلّها، على أنّها جزء مهمّ من الطاقة الفاعلة المتحرّكة المُصلحة في أمّتها، ولكنّها ليست الجزء الوحيد. هذه قناعة من المهمّ جدّاً أن ترسخ لدى الجماعة في المرحلة الجديدة.

أخيراً، فإنّ لكلّ هذه التغييرات العميقة الكبيرة شروطها واستحقاقاتها، من أهمّ هذه الشروط أن تتوفّر للجماعة القدرة على التفكير الاستراتيجي طويل الأجل، وكذلك القدرة على إدارة عمليّات التغيير إدارة احترافية فعالة. بغير هذه القدرات، يظلّ الكلام عن تطوير الجماعة وتغييرها طموحاً نظرياً وآمالاً لا يصدّقها الواقع.

إذاً، في ظل هذه الرؤية يمكن لنا أن نقول إنّ مستقبل الإخوان رهين بأمور عدّة منها قدرة الإخوان على إعادة التوحّد التنظيميّ وما يستوجبه من إعادة النظر من خلال مؤسّسات الجماعة في الرؤية الواجب اتّباعها اليوم، وقد يسبقها عمل تقييميّ منهجيّ لما حدث خلال العشر سنوات الماضية أشبه بالتقارير التي تصدر عن الكيانات عقب كلّ انتصار أو إخفاق، ومنها القدرة على اتّخاذ مواقف تجمع أبناءها مع كلّ تيّارات الأمّة ممّن يتّسمون بالوطنية في صعيد واحد دعماً للحرّيّة والكرامة واحتراماً لحقوق الإنسان وحقوق البشر في حياة كريمة تسمح لهم بتولّي أمرهم دون تدخلات الخارج، التي أفسدت على الأمّة ماضيها وحاضرها في ظلّ غياب إرادة شعبيّة حقيقيّة منظّمة تواجه الطابور الخامس في كلّ دولة من دول الأمّة الإسلاميّة.

الثورات العربيّة هي أفضل فرصة لدى الأمّة والشعوب لاستعادة حرّيّتها وتأسيس حياتها من جديد على النموذج الإسلاميّ الذي تدعو إليه الجماعة

ولأنّ الإخوان يمثّلون الوسطيّة في الفكر والمنهج والسلوك ما بين سلفيّة وصوفيّة كلّ منها يمثّل اتّجاهين (السلفيّة الناضجة ذات الوعي الأمميّ والسلفيّة الخادمة لأعداء الأمّة وفروعها كثيرة وآثارها واضحة) والآخر (الصوفيّة الروحانيّة المهذّبة للأخلاق والصوفيّة المبتدعة المستسلمة لأعداء الأمّة بأشكالها المتعدّدة) فإنّه في إطار ما سبق يمكن أن نقول إنّ مستقبل الإخوان لن يخرج عن ثلاثة سيناريوهات:

الأوّل: هو عدم القدرة على التجديد مع كثرة الانشقاقات لصالح شباب لم يجد في قيادات الجماعة طوال الفترة الأخيرة من يراجع نفسه وأداءه أو يلملم أبناءه أو يطوّر تنظيمه، فانسحب إلى تيّارات عدّة إيذاناً بانتهاء المهمّة وتفكّك هذا الحجم الكبير لأكبر جمعيّة أهليّة في العالم قامت بمهمّتها خير قيام، ولم يكن خلَفها كسلفها، مبدعاً في وضع الاستراتيجيّات ودراسة الواقع وملهماً في وضع الأفكار والنظريّات وموفّقاً في وضع الآليّات والإجراءات وتحميس الأتباع وقيادتهم بعقل منفتح حريص على النجاح.

الثاني: إعادة التفكير في ما مرّ من أحداث، والبدء في مراجعات حقيقيّة تعيد الثقة مرّة أخرى في فكر الجماعة، ومن ثمّ تحديد المهمّة الجديدة بعد عصر ثورات الربيع العربيّ وفي ظلّ حملة شرسة تستهدف الإسلام نفسه كعقيدة وشريعة ومنهج وسلوك وقيم وأخلاق، خاصّة وأنّ العالم كلّه في احتياج إلى هذه المنظومة الإنسانيّة البسيطة في الفهم والسهلة في التنفيذ لتمنح للبشريّة الأمن المفتقد والأمل المرجوّ للسلام والاستقرار الحقيقيّ. وهذا يستتبع استعادة الوحدة التنظيميّة وتعديلات مطلوبة في المهمّة الحاليّة والهيكل ليناسبها بحيث تتحوّل من هيكل هرميّ إلى تواصل شبكيّ. وقد يؤدّي ذلك حفاظاً على المهمّة الأولى التي لا يمكن أن تنتهي إلى اللجوء لبعض الإجراءات مثل الفصل بين الدعويّ والحزبيّ، ولا أقول السياسيّ لمخالفة ذلك لطبيعة المنهج الإسلاميّ، مع التركيز على إتمام تحالفات جديدة للطيف الواسع من الشباب والثوّار الذين كشفت عنهم الأحداث الأخيرة بعد انقضاض الثورات المضادّة على الموجة الأولى لثورات الربيع العربيّ.

مستقبل الإخوان رهين بأمور عدّة منها قدرة الإخوان على إعادة التوحّد التنظيميّ

الثالث: انقسام داخل هيكل الإخوان إلى جناحين أحدهما يستمرّ في حمل لواء الحفاظ على التنظيم ووحدة الجماعة - كما يصرّح أصحابها - بلا أيّ مجهود يبذل في المراجعات والتعديل واستقراء الواقع بما يناسب التغيّرات العنيفة في ملفّ العلاقات الدولية والهيمنة العالميّة لاتّخاذ الموقف المناسب لجماعة مثل جماعة الإخوان تحارَب من الجميع وتشوَّه صورتها وينفضّ عنها كثير من أبنائها وتفتقد وسائل وأساليب العصر في مواجهة الكوارث التي تحلّ بالمسلمين في كلّ مكان. والجناح الثاني سيخرج بأعداد أقلّ على أمل أن يعيد النظر في كلّ ما جري ويضع رؤية تناسب الواقع ليعيد صياغة نفسه ويقدّم جماعة جديدة تنتسب إلى الإمام حسن البنّا أيضا تحيي أهدافه وتراعي تخوّفاته وتستكمل مشواره في الانفتاح على الجميع وإعداد جيل يتربّى على مفهوم "ثوّار لا بغاة" إضافة إلى استمرار التربية على منهج "دعاة لا قضاة".

ولا أعتقد أنّ هناك احتمالاً آخر لسيناريو جديد. لكن نسأل الله أن يقدّر لهذه الجماعة الّتي قدّمت الكثير من التضحيات الغالية لنصرة الإسلام وقضايا المسلمين، ومثّلت حتّى الآن الكتلة الصلبة المقاومة للمشروع المعادي للأمّة الإسلاميّة، كلّ الخير لها أملاً في استمرارها بعد مراجعات واجبة، لعلّ ذلك ينجيها، إن شاء الله، من سنّة الاستبدال □